«مشروع النّاقد عزّ الدّين إسماعيل أنموذجا» (1)

الحلقة 1-2

النّاقد الجدلي وانفتاح آفاق القراءة

■ننطلق في هذه الدّراسة- التي نستهدف خلالها الكشف عن ملامح التّجربة النقديّة عند ناقدنا الرّاحل الدّكتور عزّ الدّين إسماعيل- من فرضيّة رئيسة مفادها: أنّ الفعل النّقديّ الذي مارسه ناقدنا الرّاحل خلال ما يربو عن أربعة عقود- عبارة عن فعل فاعل في نفسه فعلَهُ فيما هو فعلٌ فيه، وفيما هو فعلٌ به، وفيما هو فعلٌ له أو لأجله، وأنّه بسبب ذلك، أو نتيجةً عنه- ينطوي على عناصر، بقيت على الدّوام، ثابتةً، وأخرى متغيّرةً، وأنّ العلاقة بين ما هو ثابت من تلك العناصر وما هو متغيّر، قد بقيت، في الأغلب الأعمّ، محكومةً بمنطق التّفاعل والجدل، وليس بأيّ منطق آخر. فهل الأمر كذلك حقّاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تجلّى لنا ذلك الأمر؟ أو بالأحرى كيف تكشّفت لنا تلك الحقيقة خلال قراءتنا المنجز النقديّ لناقدنا الرّاحل؟!

حتّى نتمكّن من الكشف عن ملامح التّجربة النّقديّة لهذا النّاقد الفذّ نقول: إنّ من يقرأ في أدبيّات هذا المشروع النّقدي وحيثيّاته يلاحظ أنّ الأمر لا يتعلّق بحضور هذا النّاقد أو بالأحرى بحضور كينونته النّقديّة (النّصيّة) في حضرة هذا النّص (المفرد) أو ذاك، بل يتعلق بحضور كينونته النّقديّة (النّصيّة) في حضرة ثلاثة أكوان نصيّة، أو على الأقلّ في حضرة أربعة نصوصٍ كليّة مفتوحة، هي بمثابة حقول دلاليّة وإنتاجيّة في آن معاً:

١- في حضرة ما يمكن تسميته بـ«نصّ السّياق» النّقديّ: الاجتماعيّ أو التّاريخيّ الذي برز- على الأقلّ في وعي الخطاب الواصف لهذا النّاقد- بوصفه:

-نصّ التّفاعل والصّراع المفتوح أو الشّامل، أي الذي يشمل صراع القوى الاجتماعيّة/ الكتل التّاريخيّة، وصراع الأفكار والرّؤى (الأيديولوجيّات المعبّرة عن حضور هذه القوى المتصارعة)، ممثّلاً في: صراع الشّرق / الغرب على المستوى الإنسانيّ والحضاريّ، وفي صراع القديم / الجديد، على المستوى الثّقافي المحلي والقوميّ، ومن ثمّ، بوصفه النّص الذي ظلّ يمثّل ضرورة الكائن النّاقد وشرطه، في الوقت نفسه؛ فهو قيد الحريّة، والدّافع إليها، أو باتّجاهها، أو لنقل: إنّه بصورةٍ ما، ما يمثّل ضرورة الكائن النّاقد التي توازي حريّتَه، أو التي تفرض شروط حريّته في فعله النّقديّ، إنّه، بكلمة واحدة، كلّ ما يقف الكائنُ النّاقد في مواجهته، سعياً إلى تجاوز وضعه الأنطولوجيّ في إطاره، عبر كلامه النّقديّ الذي ينجز الآن - هنا. لذلك فهو النّص الذي ما انفكّ يستدعي مشاركة النّاقد بجهده النّقديّ الذي يسهم في إثراء هذا الواقع، ويجسّد وعيه بمشكلاته الكبرى، وإسهامه، من ثمّ، في خلق نوع من الانسجام في الموقف الجماعيّ بطريقة غير مباشرة. ومن هنا يمكن النّظر إلى هذا النّص بوصفه نصّ الواقع التّاريخيّ الذي ما انفكّ يحفز هذا النّاقد على ممارسة الفعل النقديّ والانفتاح، من ثمّ، على الثّلاثة النّصوص الأخرى التي سنفصّل فيها القول لاحقاً.

وقد أشار هذا النّاقد إلى حضور هذا النّص في عالم تجربته النقديّة، وحضوره الدّائم في حضرته خلال مسيرة عطائه النقدي، بقوله موضحاً طبيعة:» اللّحظة التّاريخيّة التي نجتازها الآن في حياتنا الأدبيّة والعلميّة، وأنّها فترة حرجة، ولكنّها رغم ذلك- أو بسبب ذلك- غاية في الخصوبة والوعي بالمشكلات الكبرى. فنحن الآن- حسب وصف هذا النّاقد- في فترة تتصارع فيها القوى المختلفة، فينتج عن صراعها ذلك القلق الخصب، وتتركز هذه القوى في الصّراع بين القديم والجديد، وبين الشّرق والغرب (٢).....»هذا الصّراع المتجدّد كان دائماً يولّد نقداً (=لنصوص الكلام الإبداعيّ المجسّدة حضور بنية هذا الصّراع) أو كلاماً في نظريّة النّقد، ولم يكن ينتج أدباً (=نصوصاً أدبيّة تجسّد حضور منطق ذلك الصّراع)، حتى ليستطيع الإنسان أن يقول: إنّنا نجتاز عصراً نقديّاً أكثر منه أدبيّاً. ولإحساس تلقائيّ بهذه الحقيقة وجدتني أنصرف منذ أوّل عهدي بكليّة الآداب إلى النّقد الأدبيّ والدّراسات النّقديّة، ولكنّي- بعد المضيّ خطوات- وجدت أمامي ميداناً فسيحاً لا يمكن أن يلمّ الإنسان بأطرافه في وقت وجيز» (٣).

حيث يشير النّص السّابق إلى أنّ الفعل النّقديّ الذي مارسه هذا النّاقد قد جاء في مواجهة قضايا العصر ومشكلاته الكبرى، وهذا يقتضي أنّ من سمات فعله النّقديّ الذي أنجز: الواقعيّة التّاريخيّة: التي تقتضي حضور الفاعل النّاقد في حضرة واقع الصّراع الاجتماعيّ أو التّاريخيّ وتفاعله مع نصوصه المعبّرة عن حضور قضاياه ومشكلاته الكبرى، ما جعله يجسّد- خلال فعله النقديّ- حضور الواقع والممكن، في آنٍ معاً، على نحو من شأنه أنّه قد أسهم في صياغة نسقٍ وعيه النقديّ المزدوج القادر على تفكيك هذا الواقع وإعادة بنائه، على نحو جعل من فعله النقديّ، أو من لحظة القراءة النقديّة لحظة حضور كليّ مفتوح (مزدوج):

د. عبد الواسع الحميري

٢- في حضرة نصّ (الكلام) المقروء/ المنقود، بما هو نصٌّ موجودٌ في ذاته، وقد حرص هذا النّاقد أن يكون هذا النّص مفتوحاً على جميع فنون القول؛ بحيث شمل: نصوصاً من الشّعر العربيّ قديمه وحديثه، ومن الشّعر الغربيّ، ومن القصّة والرّواية، والمسرح....إلخ.

٣- وفي حضرة نصّ القراءة النّقديّة السّابق في الوجود على وجوده الإنّيّ (المتحقّق الآن-هنا)، بوصفه نصّ الخبرة القرائيّة الخاصّة والعامّة الذي تشكّل خلال مسيرة حياته النّقديّة القرائيّة، وهو النّص ذاته الذي ما انفكّ هذا النّاقد يشير إليه- في خطابه الواصف- مؤكّداً حضوره وفاعليّته خلال فعل القراءة النّقديّة الذي ينجز، على نحو ما يوحي بذلك قوله (٤) في مفتتح إحدى أهمّ دراساته النّقديّة، مؤكّداً هذه الحقيقة:» وقد جاء هذا الكتاب متأخّراً عن أوانه بعض الوقت، ولكن ذلك قد مكّنني من أن أجعله مستوعباً لمعظم أفكاري التي كوّنتها في تجربتنا الشّعرية الجديدة منذ بدايتها حتى اليوم، كما أنّ مرور فترة مناسبة على هذه التّجربة، كان بدوره كافياً لنضجها، وبروز معالمها المميّزة أمام الدّارس..».

وقد أشار ناقدنا الرّاحل إلى هذا النّص من خلال ما أسماه «الإطار الحضاريّ» الذي تتشكّل خلاله الأفكار والعقائد...وهو جمّاع ثلاثة أطر متوازية ومتفاعلة، هي الإطار الفكريّ، والإطار الاجتماعيّ، والإطار السّياسيّ، وهي- فيما يرى هذا النّاقد- أطر مرنة ومتطوّرة، بل إنّها قد تتغيّر من وقت إلى آخر (٥).

ما يحتّم علينا ونحن نتصدّى لدراسة موقف الشّعر العربيّ المعاصر القيام بتحليل جديد، يأخذ في الاعتبار خصوصيّة الإطار الحضاريّ الذي نعيش فيه وقتنا الحاضر، حتى يمكننا النّظر إلى الشّعر المعاصر في ضوئه.

ومن هنا فهو يرى ضرورة دراسة شعر الشّاعر (شوقي مثلا) في ضوء الإطار الحضاريّ الذي عاش فيه، أعني في ضوء العقيدة التي سيطرت على هذا الإطار في مستوياته الفكريّة والاجتماعيّة والسّياسيّة المختلفة، ولو أنّنا تعمّقنا هذا الشّعر لأدركنا كيف سيطرت عليه فكرة البحث عن الرّوح المصريّ الخاصّ بمشخّصاته الخاصّة (٦).

٤- وفي حضرة نصّه القارئ الحلم، بوصفه- كما أشار إلى ذلك خطابه الواصف في أكثر من موضع- النّص الذي ينصص/ يظهر اختلاف دوافع قراءته النّقديّة ومقاصدها القريبة منها والبعيدة، ومن ثمّ، بوصفه:

أ- نصّ الرّغبة في التّأسيس لنصّ جديد في القراءة النّقديّة (العلميّة) القائمة على أسس علم النّفس (كما تجسّد ذلك في كتابه»التّفسير النفسيّ للأدب). منطلقاً في ذلك من» أنّ الدّراسات السّابقة لدراسته (=دراسات العقّاد وطه حسين مثلاً) لم تصطنع منهجاً معيّناً من التّحليل محدّد المعالم، ومن ثمّ، ظلّ منهجاً خاصّاً بها، بحيث كانت دراسة كلّ شخصيّة (=من شخصيّات الشّعراء القدامى) تمثّل»تجربة»جديدة يُنتَفَعُ بها في إطارها الخاصّ، ولا يَسهُل الانتفاع بها خارجه، حتى كتب العقّاد كتابه عن» أبي نواس» عند ذاك بدأت معالم المنهج تتضّح؛ إذ حاول المؤلّف شرح شخصيّة هذا الشّاعر في ضوء مجموعة من الحقائق النّفسيّة والعلميّة، فانتهى (به الأمر) إلى أنّ أبا نواس كان» نرجسيّاً» وأنّ نرجسيّته كانت شاذّةً، وأنّه ولد ببعضها، وساعدت الظّروف على بعضها الآخر. وهذا الكتاب خطوة تتقدّم كتابه عن»ابن الرّومي»؛ فهو في هذا الكتاب الأخير- كما يقول هذا الناقد- كان يحدّد معالم شخصيّته، وهو في»أبي نواس» يحلّل طبيعة شخصيّته، وهو بعد ذلك تحليل لسيرة أكثر منه تحليلاً لوقائع نفسيّة (٧).

ب- وبوصفه، من جهة ثانية، نصّ الرّغبة في بناء نظريّة عامّة في الفنّ، ومن هنا رأيناه يقرّر ضرورة الرّبط بين الفنّان وفنّه ومتلقّي فنّه، على نحو ما يوضّح ذلك قوله (٨):» وكما سبق أن قرّرنا من ضرورة الرّبط بين الفنّان وفنّه ومتلقّي فنّه، حتى تتكامل لدينا نظريّة عامّة في الفنّ، لا يمكن أن تكون دراسة الفنّان وحدها كافية».

جـ-وبوصفه، من جهة ثالثة، نصّ الاختلاف والتّفرّد القائم على التّعدّديّة أو المحكوم بمنطق التعدّديّة والاختلاف، ومن هنا رأيناه يقرّر- في خطابه الواصف- أنّ» التّفاعل بين عناصر الحياة لا شك فيه، ومظاهر الحياة الإنسانيّة بصفة خاصّة تكاد لا تختلف في أصلها أو تتغيّر، وإنّما الذي يتغيّر هو الزّاوية التي ننظر منها إلى هذه الظّاهرة الحيويّة. فالشّاعر (شكسبير مثلاً) يتكشّف له منها جانب أو جوانب، والعالم (فرويد مثلا) يتكشّف له منها جانب أو جوانب، وبإضافة هذه إلى تلك تبدو الصّورة أكثر وضوحاً ونصاعة في جوانبها المتعدّدة. فليس غريباً على طبائع الأشياء أن يفيد علم النّفس (ممثّلاً في فرويد) من الشّعر (ممثّلاً في شكسبير) أو من القصّة (ممثّلة في دوستويفسكي أو برست أو من على شاكلتهم) إذ إنّ الهدف في كلتا الحالتين مشترك، وهو كشف أكبر قدر ممكن من جوانب الحياة الإنسانيّة (٩).

د-وبوصفه، من جهة رابعة، نصّ الكشف عن حقيقة الوجود النّصيّ والخارج نصيّ، في الوقت عينه، وقد انطلق ناقدنا الرّاحل في هذا الموقف من أنّ» الفنّ الأصيل ليس صياغة للحقائق المقرّرة، مهما بلغت درجة الوثوق بها، وإنّما هو استكشاف لهذه الحقائق (١٠). ما دفعه إلى القول:» إنّ كلّ مائدة ثقافيّة متاحة للمتفنّن يتناول منها ما يشاء، بل ربّما كان من واجبه أن يصنع هذا؛ فالفنّان يستفيد من خبرته الشّخصيّة ومن خبرات الآخرين كذلك. لكن خبرات الآخرين، بالنّسبة له، من حيث هو فنّان، ليست إلاّ مادّة تفاعل، ولا يمكن أن تصبح ملكاً له إلاّ بعد أن تمتزج بخبرته الشّخصيّة، وتنصهر معها في كلّ موحّد. لا بدّ أن تمرّ هذه الخبرات من خلال منشور عقله فتنعكس في نفسه بزاوية انكسار تحدّدها طبيعة ذلك المنشور، فإذا ما أنتج عملاً فنيّاً صدر في ذلك من هناك، من تجربته الخاصّة، لا من مقرّرات فرويد (١١).

هـ-وبوصفه، من جهة خامسة، النصّ المعبّر عن إرادة الفهم الشّامل أو المتكامل لكلّ من النّص المقروء، والذّات القارئة، ما جعله يؤكّد- في أحد ملفوظات خطابه الواصف (١٢)- على ضرورة التّمييز» بين نوعين من تحليل العمل الشّعريّ، كلاهما (يعدّ) ضروريّاً للفهم الشّامل أو المتكامل لهذا العمل: فهناك التّحليل الأوّل الذي نواجه فيه العمل الشّعريّ (النّص المقروء) عندما ندخل إليه في عالمه، ثمّ هناك التّحليل الثّاني الذي نقوم به خارج العالم الشّعريّ بعد أن نكون قد امتلكنا العمل الشّعريّ ذاته».

في إشارة واضحة إلى أنّ ما يميّز ناقدنا الرّاحل، من بين كثير من النّقاد المعاصرين، أنّه قد تبنّى- منذ وقت مبكّر- الطّريقة الثّالثة في تجريب القراءة النقديّة، أعني تلك التي تعتمد منطق الذّهاب إلى النّص المقروء، والإياب عنه، في الوقت نفسه، بدليل قوله بعد ذلك، موضّحاً ملامح هذه الإستراتيجيّة الكليّة المركبّة في تحليل النّص (١٣)، ومعلناً، في الوقت نفسه انحيازه لها، والتزامه سبيلها:» ونودّ هنا أن نفرّق بين نوعين من تحليل العمل الشّعريّ، كلاهما ضروريّ للفهم الشّامل، أو- على الأقلّ- المتكامل لهذا العمل. هناك التّحليل الأوّل الذي نواجه فيه العمل الشّعريّ (النّص المقروء) عندما ندخل إليه في عالمه، ثمّ هناك التّحليل الثّاني الذي نقوم به خارج العالم الشّعريّ بعد أن نكون قد امتلكنا العمل الشّعريّ ذاته. وأقول (امتلكنا) لأنّنا لن نستطيع أن نقدّر القصيدة أو نحدّد موقفنا منها إلاّ بعد أن نمتلكها على نحو من الإنحاء، أي بعد أن نخرج منها.. ففي التّحليل الأوّل نظلّ ملكاً لعالم القصيدة. لكنّنا كلّما انهمكنا في هذا العالم دلّ ذلك الانهماك على رغبتنا في العثور على أنفسنا مرّةً أخرى. إنّنا نكافح مع القصيدة، مع العالم الشّعريّ، كي نرتدّ إلى عالمنا (الخاص)، ولن يجد إنسان في نفسه الجرأة على أن يتحدّث عن قصيدة ما قبل أن يعايشها في عالمها، وقبل أن يعود فيعثر على نفسه خارجها، وهو في معايشته لها يقوم بعمليّة تحليل لها لا تخصّ أحداً سواه. إنّه في هذه اللّحظة هو المتورّط الوحيد الذي ألقى بنفسه في عالم غريب؛ عليه أن يتفهّمه أو أن يشقّ لنفسه طريقاً فيه. وليس هذا الطّريق سوى طريق الخروج. حتى إذا ما خرج منها، وشاء أن يحدّثنا عن مغامرته، فإنّه عندئذ يتحدّث (إلينا) وفي عالمنا. إنّه يجذب عندئذ ذلك العالم الشّعريّ إلى أرضنا. وهو عندئذ لا ينسج العالم الشّعريّ (الذي ذهب إليه وآب عنه) أو عالمنا الأرضيّ (الذي آب إليه)، أو يحلّ واحداً منهما محلّ الآخر، ولكنّه يمكّننا من أن نرى الواحد منهما خلال الآخر. وهو في ذلك يعدّل من موقفنا بمقدار ما يستكشف من عالم القصيدة (١٤)....والتّحليل الثّاني الذي نقوم به (نحن) خارج القصيدة لا ينتمي إلى عالم القصيدة إلاّ بمقدار ما ينتمي إلى عالمنا (نحن قرّاء القصيدة) (. .. .) فالشّاعر إنّما يدخل العالم الشّعريّ لكي يستكشف نفسه، وإنْ بدا لنا أنّه يستخفي في هذا العالم. إنّه يستخفي حقّاً وراء الرّمز والاستعارة والعلاقات اللّغويّة الغريبة، وكلّها أشكال تعبيريّة تنتمي إلى العالم الشّعريّ، ولكنّه هو نفسه يظلّ هناك، يشقّ لنفسه طريقاً في هذا العالم العجيب. إنّه أشبه ما يكون بالملّاح الذي يجذبه الحنين إلى البحر، الحنين الأبديّ المبهم، لا لاستكشاف البحر نفسه- وإن بدت لنا المغامرة في ظاهرها استكشافاً لعالم البحر- ولكن لاستكشاف الذّات (المبحرة). وهو ما يكاد يدخل إلى عبابه حتى يتقاذفه الموج، ولكنّه لا يستسلم له، فما زالت يده في كلّ لحظة تمسك بالدّفة، وما يزال يحتال- في لحظات المواجهة- مستغلاً كلّ ذكائه وخبرته وكلّ طاقاته، حتى يشقّ لنفسه طريقاً وسط هذا الموج الهادر، وحتى يخلص مرّةً أخرى إلى اليابسة، إلى الأرض التي يسير فيها- ككلّ النّاس- على قدميه (١٥)».

حيث يشير النّص السّابق الذي حرصنا على اقتباسه كاملاً رغم طوله، إلى عدد من الحقائق التي تسهم في الكشف عن ملامح التّجربة النّقديّة لهذا النّاقد الفذّ، أبرزها:

-الحقيقة الأولى: أنّ ثمّة ثلاث طرق في (تجريب) قراءة النّص أو في» تحليل العمل الأدبيّ»- وإن انحاز المؤلّف إلى واحدة منها فقط، هي:

-طريقة الذّهاب إلى النّص فقط، لتجريب قراءته كما هو، وامتلاكه كما هو في ذاته- حسب المؤلّف.

-وطريقة الإياب عن النّص، لقراءته كما نحن، أو كما هو في نصّنا القارئ، وهي طريقة لا يصّرح بها المؤلّف، بل نفهمها ضمناً من خلال عرضه السّابق.

-وطريقة الذّهاب إلى النّص والإياب عنه، في الآن نفسه، لقراءته كما هو في ذاته، من جهة، وكما نحن في ذاتنا، من جهة ثانية، وهي الإستراتيجيّة التي انحاز لها ناقدنا الرّاحل، وبلور ملامحها خلال ملفوظات نصّه السّابق، جاعلاً منها الشّرط الأوليّ والضّروريّ لما أسماه « الفهم الشّامل»، أو»المتكامل»، وهي- حسب ملفوظ النّص الواصف الآنف- طريقة تعتمد- إزاء النّص المقروء- سياسة الكرّ والفرّ، أو منطق التّداخل في النّص والتّخارج عنه، في الوقت عينه، ومن ثمّ، طريقة السّقوط فيه والتّعالي عليه، في الآن نفسه، أو طريقة الذّهاب إليه والنّكوص عنه، أو الانقباض عنه والانقضاض عليه، لاكتشافه كما هو في ذاته، واكتشاف ذواتنا من خلاله.

الهوامش:

١- نشرت هذه الدّراسة في مجلّة (فصول) للنّقد الأدبي، ع٧٢، شتاء ٢٠٠٨م، بعنوان» جدليّة الثّابت والمتحوّل في حركة الفعل النّقديّ عند عزّ الدّين إسماعيل، وذلك ضمن ملف العدد المكرّس لتناول تجربة النّاقد الرّاحل. غير أنّا آثرنا تحوير عنوان الدّراسة وإعادة صياغة بعض قضاياها، بما ينسجم مع ما تسعى هذه الدّراسة إلى تحقيقه من أهداف ومقاصد كليّة.

٢- (الأسس الجماليّة في النّقد العربيّ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٣، ١٩٨٥م: ٢).

٣- (نفسه: ٣).

٤- (الشّعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، دار الثّقافة، بيروت، ١٩٦٦م: ٥).

٥- (الشّعر في إطار العصر الثّوري، دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م: ٤٧).

٦- (نفسه: ٤٨).

٧- (التّفسير النّفسيّ للأدب، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨١م: ١٥).

٨- (نفسه: ٢١).

٩- (نفسه: ٢٢).

١٠- (نفسه: ٢٤).

١١- (نفسه: ٢٤).

١٢- (الشّعر العربيّ المعاصر:٣٩٠).

١٣- (ينظر: نفسه).

١٤- (نفسه: ٣٩٠، ٣٩١).

١٥- (نفسه: ٣٩٢).

إصدارات ثقافية

رحلة اكتشاف الأصل البشري الأول

● أبوظبي - يأتي إصدار الكتاب العلمي «الحلقة المفقودة.. الكشف عن الأصل البشري الأول» للمؤلف البريطاني كولين تادج، في إطار حرص مشروع «كلمة» للترجمة على تزويد القارئ العربي بالاكتشافات العلمية الحديثة المثيرة للجدل، ووفقا لما يراه بعض العلماء والمؤلفين الذين يقدمون نظريات جديدة قد لا تطابق الواقع والنظريات التي تسبقها،

ويتناول هذا الكتاب - الصادر عن مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث - بأسلوب أدبي في معظم أجزائه رحلة اكتشاف إحدى الحفريات القديمة «إيدا» التي عُثر عليها في بحيرة «ميسيل» القديمة، ويرجع تاريخها إلى حوالي ٤٧ مليون عام.

يروي لنا الكتاب، الذي قام بنقله إلى اللغة العربية المترجمة مروة هاشم، تجربة البروفيسور جورن هوروم والتي تعد «تجربة العمر» كما جاء في المقدمة، في جلب تلك الأحفورة إلى متحف التاريخ الطبيعي بجامعة أوسلو، والعمل عليها مع فريق متميز من العلماء، أطلق عليه هوروم اسم «فريق الحلم».

يقع الكتاب في تسعة فصول، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، حيث تبدأ الفصول الأولى بسرد تفاصيل كيفية شراء الأحفورة ونقلها إلى المتحف المشار إليه لفحصها وإخضاعها إلى الأشعة السينية الدقيقة، وتحديد السلالة التي تنتمي إليها.

ومع قراءة السطور الأولى من الكتاب، يشعر القارئ بالعلاقة التي نشأت بين تلك الأحفورة والبروفيسور هوروم، لدرجة أنه أطلق عليها اسم ابنته «إيدا»، وكذلك نلاحظ أنه بمجرد النظر إلى صورتها لدى بائع الأحافير تأكد لديه الحدس والشعور بأنه أمام الأحفورة التي تمثل الحلقة المفقودة بين تطور قردة الرئيسيات (رتبة الرئيسيات التي ينتمي إليها الجنس البشري كما يعتقد العلماء) والجنس البشري، ويصف الفصل الأول من الكتاب صورة عن شكل البحيرة التي عاشت فيها «إيدا» وكيف لقت حتفها وهي لم تتجاوز عامها الأول.

ينطلق الكتاب من فكرة «داروين» لتطور الإنسان الذي يرى أن القردة تطورت حتى تحولت إلى إنسان مكتمل، ويذكر الكتاب أن العلماء يرون اليوم أن الإنسان لم يتطور من أي كائنات أخرى تنتمي إلى الرئيسيات، بل انفصل عنها، وقد حدثت هذه الانفصالات طوال زمن الحياة فوق الأرض، مع نشأة كل سلسلة من الكائنات، ومع كل انفصال، كانت تطرأ حلقة مفقودة افتراضية، مخلوق يُعد الخطوة الأولى صوب النوع الجديد - فيما يُعرف بـ «الأنواع الانتقالية»، ويرى «هوروم» وفريقه، أن «إيدا» لكونها أكثر الحفريات اكتمالا، تعد تلك الحلقة المفقودة، أي أنها جدة كل البشر، ويزعم «هوروم» بأنها قضية سوف تثير الجدل في الأوساط العلمية، وبأنها ستصبح أحد رموز العلم المميز في القرن الحادي والعشرين وأنها عينة قد تغير التاريخ، وهو يقارنها أيضاً بحجر رشيد الذي فتح الأبواب لدراسة اللغة في عقود مقبلة.

تنتقل فصول الكتاب، بداية من الفصل الثالث، بالقارئ إلى العصر الإيوسيني المفترض أن عاشت فيه «إيدا»، لتقدم وصفاً علمياً دقيقاً للظواهر الجيولوجية في ذلك العصر وحالة الطقس، وكذلك تفاصيل عن العصور السينوزي والعصر الباليوسيني، وعصر الديناصورات، ويستطرد في شرح أسباب انقراض الديناصورات التي حلت محلها الثدييات والرئيسيات، ويشرح الكتاب كيفية انخفاض حرارة العالم، وفي فصل منفصل، ربما يكون الأطول بين فصول الكتاب، يصف حفرة ميسيل والحفريات التي تم العثور عليها للحيوانات المختلفة، بما في ذلك الحشرات والأسماك وكذلك الطيور، ويستعرض أسباب احتفاظ البحيرة بالعديد من الحفريات الجيدة.

وفي الفصل الخامس يتناول بالشرح الدقيق ماهية الرئيسيات التي تعد المرتبة العليا من الثدييات التي تنتمي إليها «إيدا»، ويجد القارئ معلومات هائلة حول حيوانات قردة الليمور والنسانيس والقردة الليلية الصغيرة، مع الإشارة إلى فصائل الرئيسيات والثدييات المختلفة وقضية الأسلاف المشتركة، وبالقطع يضع الكتاب فصيلة البشر من بينها، ويتناول أيضا الحياة الاجتماعية للرئيسيات، وهو من أكثر المواضع الطريفة في هذا الكتاب، خاصة عندما يصف تعدد الزوجات في الغوريلا والشمبانزي والزعامة والسيطرة بين الذكور والإناث.

ويستكمل الفصل السادس سرد تطور الرئيسيات مع إعطاء خلفية عن سجل الحفريات، وعلاقته بتحديد عمر إيدا والسلالة التي تنتمي إليها، مع شرح تفصيلي لبعض الفصائل، والإشارة إلى المواضع الشهيرة بخلاف حفرة ميسيل التي تم اكتشاف حفريات أخرى بها. في هذا الفصل على وجه التحديد، يتطرق المؤلف إلى القضية الشائكة للحلقات المفقودة والمعارضة التي تنشأ من رجال الدين وعلماء اللاهوت، ويناقش آراء داروين ومدى علاقتها بسجل الحفريات (غير المكتمل)، الأمر الذي يجعل - على حد قول المؤلف - أن «داروين كان محقا على الأقل من ناحية المبدأ وإن لم يكن كذلك في كل التفاصيل».

ويستكمل الفصل السابع وصف التطور الذي حدث منذ العصر الإيوسيني وحتى عصرنا الحالي، وتغير الكائنات الحية والرتب التي تنتمي إليها، ويشرح هذا الفصل الأسباب التي جعلت العالم أكثر برودة، وحركة الأرض ونشأة الأعشاب، ويبدأ في وصف ما أطلق عليه فصيلة «أشباه البشر» و«إنسان الغاب» من القردة الكبيرة، والعائلات الكبيرة لقردة الرئيسيات، وينتقل إلى الحديث عما أطلق عليه البشر الأوائل والأنواع البدائية ليصل إلى السلالة الحديثة للإنسان، وكل ذلك وفقا لما يراه مؤلف الكتاب.

وأخيراً في الفصل الثامن، يبدأ الكتاب في الحديث عن «إيدا» ذاتها، بعيداً عن الكائنات والظواهر التي يفترض فريق الحلم أنها كانت محيطة بها، ويؤكد أن تحليل «إيدا» وفحصها يؤكد أنها تنتمي إلى فترة زمنية في تاريخ الرئيسيات، ويشرح الكتاب مفهوم الأسلاف والمجموعات الشقيقة في السلالات، ويقدم الكتاب النظريات الأربع التي اقترحها من قبل علماء الحفريات حول الأسلاف المشتركة للأنواع.

أما الفصل التاسع، فيصف كيفية تقديم «إيدا» إلى العالم، وانطباعات وآراء فريق الحلم حولها، ويضيف بعض السمات لوصف «إيدا»، وما جعل الفريق يعتقد أنها حفرية متفردة بحق.

اشتهر مؤلف الكتاب كولين تادج البريطاني - أبريل ١٩٤٣ - ببراعته في صياغة الكتب العلمية والتاريخ الطبيعي بشكل عام، حيث قام بدراسة علم الحيوان في جامعة كامبريدج، كما أن لديه خبرة واسعة في تقديم البرامج العلمية من خلال عمله في راديو إذاعة الـ بي بي سي، وكذلك في تحرير المقالات والمواد الصحفية العلمية من خلال عمله محرراً في عدد من المجلات العلمية المتخصصة. وقد حصل المؤلف ثلاث مرات على جائزة «جالكسو» لأفضل كتاب علمي للعام التي تمنحها الجمعية البريطانية لمؤلفي الكتب العلمية.

مترجمة الكتاب مروة هاشم حاصلة على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة ١٩٩٧، تعمل حاليا بوظيفة اختصاصي إعلام بالمجلس العربي للطفولة والتنمية، ولها عدد كبير من الترجمات والمقالات والحوارات الصحفية المنشورة في المجلات الثقافية والصحف العربية، بالإضافة إلى العديد من الكتب المترجمة منها: «ترجمان الأوجاع» و«عبودية الكراكيب» و«فن الحياة» و«تقنيات الأداء المسرحي» و«كيف تصبح ممثلاً موهوباً».

«مجلة البلاغة المقارنة»

■ صدر العدد الجديد من مجلة ألف «مجلة البلاغة المقارنة»، وهي دورية تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وترأس تحريرها الناقدة فريال جبوري غزول .

محور هذا العدد «أمريكا الأخرى»، وقد جاء في افتتاحيتها: أن هذا العدد، مثله مثل الدراسات الأمريكية الحديثة المتخصصة، ينال من مركزية الحكايات الرسمية، مُركزا على الفهم النقدي لأمريكا، متجاوزا المطابقة الشائعة بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ويتجاوز كذلك المطابقة بينها وبين الدولة الرسمية بسلطتها التشريعية، ذات الطابع الإيديولوجي، إن الاستكشاف النقدي لقضايا العولمة، وتداخل القوميات، والتعدد العرقي، والتلاقح بين الثقافات، يتنكر للتقاليد الضيقة التي تعمد إلى جعل أمريكا حالة استثنائية، ويطور هذا الاستكشاف الحوار حول جوانب أمريكا الخافية عن النظر، بالمعنيين المحلى والعالمي، آخذا في الحسبان ما لم ينل معرفة كافية، وإن لم يكن أقل ثقلا، ألا وهو الإنتاج الثقافي داخل حدود الولايات المتحدة، أو ما وراء تلك الحدود .

وقد جاء هذا العدد حافلا بالدراسات باللغتين العربية والإنجليزية، عشر دراسات باللغة العربية وثماني دراسات باللغة الإنجليزية، أنصبت جميعها حول الذاكرة الأمريكية المضادة غير الرسمية، والحيوية الاجتماعية والسياسية والفنية والأدبية فى القارة الأمريكية كلها، من خلال الممارسات الثقافية المعاكسة فى مجالات الأدب والفلسفة والفنون المرئية والأفلام والمسرحيات والرقص والكوميديا.

كما تقدم مقالات هذا العدد رؤى وآراء وتنوعات في نسيج أمريكا لطرح التساؤلات حول الهوية القومية وتوسيع التعريفات المستقرة مع اقتراح أنماط جديدة من التساؤلات حول الولايات المتحدة الأمريكية، بوصفها مكانا يقيم حوارا مع الآخرين في هذا العالم.